

من عجائب التصغير في بعض الكلمات

الأستاذ / محمد بن تاويت

لا كذب الله ، انى لجأت الى كتب عديدة امهات وبنات ، نحويات ولفويات ، كذلك . فكان من بنات اللغويات «المنجد» (الذى يتجنى عليه ، بعضهم ، وما خدم المعجم العربى بمثل ما خدمه «المنجد» طوال القرن الرابع عشر الهجرى ، تقريبا) فوجدته ينص بالشكل على هذا التصغير ، الذى سمعه الدكتور طه من شيوخه ، فى هذه الكلمة «دُوَيْبَة» . وكان من امهات اللغة ، كتاب ابن منظور ، اعنى (لسان العرب) ، الذى قال «وتصغير دابة دويبة ، الياء ساكنة ، وفيها اشمام من الكسر ، وكذلك ياء التصغير اذا جاء بعدها حرف مقل في كل شىء . ونقل هذه العبارة كذلك الزبيدى صاحب (التاج) وهذا يؤيد ما نقله ، او سمعه الدكتور طه حسين ، إذ الياء ساكنة ، وما بعدها مثل ، ورجعت ايضا ، الى كتاب المصباح المنير ، فوجدت فيه فضل فائدة عظيمة ، فهو يقول : «وتصغيرها دويبة على القياس (يعنى التشديد كذلك لان هذا القياس يقتضيه) وسمع دُوَابَة ، بقلب الياء الفا على غير قياس .

ولعمري ان هذه المخالفة للقياس ، اخرى بان تتقبل لدى الأنواق العربية السليمة السليقة ، وكل ما فى الامر ان التصغير جاء على هذه الحال ، تقاديا لهذه الكلفة ، فنتقبلها العربية ، على الرغم من أنف القاعدة العامة التى اقيمت لها . ويكون الخروج عن

جمعى مجلس فى دور بعض اساتذة كلية الآداب لفاس ، ببعض الافاضل من اساتذة الاطلس العربية الشقيقة ، كان فيهم الاديب العالم الدكتور عبد الله الطيب السودانى . وفى احاديثنا انجر الكلام الى الازهر الشريف ، الذى كان الدكتور يشيد بماضيه وطريقته تلقينه المفيدة ، ويأسف لتقلص ظل السامعات منها ، فى عصرنا الحاضر . وكمثال لفائدة السماع ، ذكر ان استاذنا الدكتور طه حسين — رحمه الله — سئل ذات يوم عن تصغير دابة ، فقال ، انه سمع من شيوخه ، انها دُوَيْبَة ، بتشديد الباء . فعلق الدكتور السودانى ، على فائدة السماع فى هذه القضية ، التى لولاه ، لاحترنا فيها .

والحقيقة انى استغربت فى قرارة نفسى ، هذا التصغير ، الذى يجتمع فيه محذور التقاء الساكنين ، ليس احدهما حرف لين . وكنت فيها مضى ، ساهيا عن قاعدة التصغير فى دابة ، فتقبلتها ، بتخفيف الباء ، مع ان القاعدة تآبى ذلك ، حيث تقول الخلاصة ،

نعميل مع نعميل لما فاق كجمل درهم درهما

اذن ما الحيلة فى التخلص من المحذورين .

القياس له وجه ، كما هو في عشرات ، بل مئات المسائل اللغوية والصرفية في العربية الرقيقة الحاشية ، أما كتب النحو ، فوجدت من بينها شرح الأسموني ، الذي نص على قاعدة ، أصخت اليها بكل اهتمام ، معتقد أنها ستفيدني ، فما فعلت ، ولانعمل من حشى على الشرح ، وسكت الجميع ، أو مروا بها مر الكرام ، فقد قال الأسموني :

« فان كنا في كلمتين ، مثل جعل لك ، كان الإدغام جائزا ، لا واجبا بشرطين ، أن لا يكونا همزتين ، نحو قرا آية ، فان الإدغام في مظه رديء ، وأن لا يكون الحرف الذي قبلها ساكنا غير لين »

فاذا أخذنا بهذه العلة مجردة ، وبصرف النظر عن كونها ذكرت ، في حالة كون الإدغام في كلمتين ، فاننا لا نجيز قياس التصغير الذي طبق على دويبة ، بما سمع وذكر صراحة ، في المعاجم الأتفة الذكر .

ويبقى السؤال بعد هذا ، لا يجد له جوابا وهو متعرض للنقض ، من جانب آخر .

ونطوى كتب المتأخرين ، ومن هم في حكم المتأخرين ، ونصعد في الزمان ، الذي ثبت بهامه مئات السنين .

اننا ان فعله هذا وقفنا عند عتبة النحو الاولى ، وعند « الكتاب » الذي هو أقدم ما عرف في تأليف النحو على الإطلاق والاستفراق . ففي هذا « الكتاب » نجد سيويوه يقول : « هذا باب تصغير المضاعف الذي قد ادغم أحد الحرفين منه في الآخر ، وذلك تولك في مدق ، مدقق ، وفي أصم ، أصيم ، ولا تغير الإدغام عن حاله ، كما

انك اذا كسرت مدقا للجمع ، قلت ، مداق ، ولو كسرت أصم ، على عدة حروفه ، كما تكسر أجذلا ، فتقول ، أجادل لقلت ، أصام ، فانما أجريت التحقير على ذلك ، وجاز أن يكون الحرف المدغم بعد الياء الساكنة ، كما كان ذلك بعد الالف التي في الجمع » .

فهنا نجد (سيويوه) ، بنفس عنا هذا الضيق الذي نشعر به عند هذا التصغير ، بأن الياء الساكنة ، قبل ذلك الساكن الذي نتج عن الإدغام ، نزلت منزلة الالف وهو لا حرج عليه ، في نحو الطائبة والصاخة والمسلاة والدابة ، ونحو ذلك مما له امثلة عديدة في العربية نتكون نتيجة التصغير في هذه الكلمات ، طَوَيْتَ ، وَصَوَيْتَ ، وَمَوَيْدَةَ ، بتشديد ما بعد ياء التصغير ، كما قيل في دويبة ، مما تحولت الالف الثانية فيه واوا عند التصغير ، بمقتضى قول الخلاصة :

والالف الثانی الزيديجمل وأوأكذا الاصغية يجهل

وهذه الفائدة اظن أن كثيرا مثلى ، كانوا يجهلونها ، وينطقون عن حسن نية منهم ، كلمة دويبة بفتح الباء المخففة ، ولهم عذرهم في هذا واعتمادا على ما فكر سباعه في الصباح ، فيمكن تصغير هذه الكلمات ، طَوَايِمَةَ ، وَصَوَاخَةَ ، وَمَوَايِدَةَ ، ونحوها حُوَايِمَةَ ، لكلمة « الحاتمة ما الحاتمة » وَجُوَايِدَةَ ، للجادة ، وَحُوَايِمَةَ ، للحامة فتكون صيغة مُعَالَّةً ، بتشديد اللام ، صيغة عرفت في هذا الباب ، ولا ندرى مصداقها ولا مصداق غيرها ، فيما ذكر سلفا ، من النصوص العربية العتيقة ، التي لما تسعفنا حتى هذه اللحظة من حياتنا .